العداوة، كما كان حال الخليل عليه السلام فقال: ﴿فانّهم عدوّ لی إلّا ربّ العالمين﴾ (الشعراء(۲۶): ۷۷).

فكما أنّ لأرباب النفوس بغلبات الشهوات النفسانيّة حظوظ منبعثة من دركات الجحيم ـ من النساء والبنين والذهب والفضّة والخيل والأنعام والحرث ـ على عدد أبوابها السبعة ودركاتها التی كلّها محفوفة بالشهوات كما قال صلی الله عليه وآله: «حفّت النار بالشهوات» لكلّ دركة شهوة لها سبعة أبواب[1] لكلّ باب جزء مقسوم، منهم يتلذذون بها عاجلا ويصلونها يوم الدين آجلا، كما قال: ﴿إنّ الفجّار لفی جحيم﴾ ـ يعنی الآن عاجلا ـ ﴿يصلونها يوم الدين﴾ ـ يعنی غداً آجلا ـ ﴿وما هم عنها بغائبين﴾ (الانفطار(۸۲): ۱۴-۱۶) فكذلك لأرباب القلوب بغلبات أوصافها الروحانيّة وجذبات عناياتها الربانيّة حظوظ من درجات الجنان ونعيمها عاجلا ثمّ يدخلونها آجلا، كما قال سبحانه و تعالی: ﴿إنّ الأبرار لفی نعيم﴾ (الانفطار (۸۲): ۱۳) نعيم الآثار و الأفعال، وأمّا نعيم الذات والصفات فأشار اليه بقوله: ﴿واللّه عنده حسن المآب﴾ (آل عمران (۳): ۱۴) وبقوله تعالی: ﴿اللّه يجتبی اليه من يشاء ويهدی اليه من ينيب﴾ (الشوری(۴۲): ۱۳).

المقالة التاسعة عشرة
فی قوله سبحانه: ﴿أولئک أصحاب النار﴾

وفيه البصائر:

البصيرة الأولی
فی اللفظ

اسم الاشارة فيه يحتمل أن يرجع الی الكفار والطواغيت جميعاً، فيكون زجرا للكلّ ووعيداً، لأنّ لفظ «أولئک» إذا كان جمعاً وصحّ رجوعه الی كلا المذكورين وجب رجوعه اليهما معاً، لكن إلّا رجح عندی أن يكون راجعاً الی الكفار خاصة، ويكون المراد من أصحاب النار أصحابها أصالة وجبلّة ـ وهم النفس والشيطان والطاغوت ـ، فيكون معنی الاية: أرواح الكفّار مع أصحاب النار؛ بتقدير المضاف هم فيها خالدون. أی: معهم فيها خالدون.

۱. صحيح ابن حبان، ج۲، ص۴۹۴؛ تفسير كنز الدقائق، ج۱، ص۵۱۵

البصيرة الثانية
فی المعنی

أيّها الأرواح الساهية الجاهلة الكافرة بأنعم اللّه إنّكم وإن لم تكونوا فی أوّل الفطرة من جنس أصحاب النار المبعّد عن دار القرار، لكن لماتشبّهتم بهم «فمن تشبّه بقوم فهو منهم» «ومن أحبّ قوماً فهو منهم»[1]، فكونوا معهم خالدين فی النار ﴿وماظلمهم اللّه ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ (النحل(١٦): ٣٣).

وفی هذا المقام تحقيقات نفيسة ذهل عنها الأكثرون، إلّا من أيّده اللّه بنور منه، ولايمكننی أن أجود بذكرها مفصلا للراغبين وأسمح بالكشف عنها للطالبين لابتنائها على علوم جمّة ومقدمات كثيرة بعضها برهانيّة وبعضها كشفيّة، يطول الكلام بذكرها ويخرج به عن أسلوب التفسير على طور أهل الدقة من الجماهير، مع أنّ التعمّق فی الكشف عن الأسرار غير ملائم لطبايع أصحاب الأنظار، لكن مع ذلک لاينبغی الاهمال عنها بالكلية، بل لابدّ أن أذكر اجمالا منه لكونه ممّايتوقف عليه معنى الاية على حسب ما اخترناه.

وأصل المسألة صيرورة أرواح الكفار ومايحذو حذوها بكثرة الانكباب الى اللذات من نوع مايحبّونه ويتشبّهون به من الدواب والأنعام ـ بالحقيقة لا بالمجاز ـ بعد ماكانوا من سنخ الانسان فی أوّل الأمر، فهم قد مسخوا قردة و خنازير باطناً وسراً، و إن كانوا فی صورة الانسان ظاهراً، وتلخيص بيانه على الوجه العقلی محافظاً للقانون الحكمی حسب ما شرحناه وفصّلناه فی مسفوراتنا هو ممّا أذكره الآن، فاستمع لما يتلى عليک من البيان.

البصيرة الثالثة
فی تمهيد ماأصّلناه واجمال مافصّلناه

اعلم أنّ صيرورة أرواح الكفار من أصحاب النار بعد ما لم يكونوا منها من جهة الفطرة الأصلية يتوقّف تحقيقها والعلم بها أوّلاعلى معرفة حقيقة النار والجنة، ثمّ على حقيقة أصحابها وأربابها، ثمّ على كيفية انقلاب النشأة الانسانية من أصل فطرتها إمّا الى فطرة الشياطين والسباع والبهائم، أو الى فطرة الملائكة والحور والغلمان.

وهذه أصول لاينكشف حقائقها لأحد إلّا لخواص العرفاء من الأولياء، فلنذكر نبذاً منها

١. تفسير ابن كثير، ج٢، ص٣٤٣؛ ينابيع المودّة لذوی القربى، ج٣، ص٤٦٠

وجملة من ماهيتها ومعرفتها على الكشف والتحقيق من علامات أولياء اللّه التى بها يمتازون عن غيرهم ، فانّ معرفة الملائكة وكيفية الهامها ومعرفة الشياطين وجنودها وكيفية وسواسها من لطائف علومهم و دقائق معارفهم التى لاخبر عند غيرهم إلّا بنور متابعتهم ، كما قال اللّه تعالى : ﴿إنّ الذين اتقوا إذا مسّهم طائف من الشيطان تذكروا فاذاهم مبصرون﴾ ﴿واخوانهم يمدونهم فى الغى ثمّ لايقصرون﴾(الأعراف(۷) : ۲۰۱ـ۲۰۲) .

كما أنّ من علاماتهم ودقيق علومهم ولطيف أسرارهم التى يمتازون بها عن غيرهم معرفة البعث ، والنشر ، و القيامة ، والحشر ، والحساب ، والميزان ، والصراط ، والجواز ، وذلک لأنّ أكثر علماء المذاهب وفقهائها ومتكلّميها المتعبدين فيها متحيّرون فى معنى الابليسيّة وحقيقة ابليس المخاطب ، وأكثر المتفلسفة منكرون قصته مع آدم وعداوته وخطابه مع ربّ العالمين ومواجهته إيّاه بخشونة الخطاب ممّا ذكر فى القرآن .

البصيرة الرابعة
فى معرفة الجنة والنار

اعلم أنّ لكل منها صورة وحقيقة ، فصورة النار كما وصفها اللّه تعالى بأوصاف متعدّدة من قوله : ﴿الحطمة﴾(الهمزة(۱۰۴) : ۵) ﴿الكبرى﴾(الأعلى(۸۷) : ۱۲) ﴿نزاعة للشوى﴾ ﴿تدعوا من أدبر وتولى﴾ ﴿وجمع فأوعى﴾(المعارج(۷۰) : ۱۸ـ۱۶)وقوله : ﴿انطلقوا الى ظل ذى ثلاث شعب*لاظليل ولايغنى من اللهب*انها ترمى بشرر كالقصر﴾(المرسلات(۷۷) : ۳۲ـ۳۰) و بقوله : ﴿هاوية*وماأدراک ماهية*نار حامية﴾(یونس(۱۰) : ۹ـ۱۱) وبقوله : ﴿نار اللّه الموقدة* التى تطلع على الأفئدة﴾(الهمزة(۱۰۴) : ۶ـ۷) . وصورة الجنّة كما وصفها اللّه تعالى بقوله فى عدة مواضع : ﴿جنّات تجرى من تحتها الأنهار﴾(البقرة(۲) : ۵) ﴿لهم فيها من كلّ الثمرات﴾ (محمّد(۴۷) : ۱۵) .

أمّا حقيقة النار فلايمكننى تحديدها والتنصيص عليها بما يساوقها إلّا على سبيل التقريب ، فيشبه أن تكون حقيقتها هى البعد والنقصان والقطيعة عن الرحمن لا المعنى المصدرى ، بل الجوهر الذى هو منشأ البعد والطرد عن الله ، فانّ للوجود درجات متفاوتة و دركات متسافلة ، احدى حاشيته فى غاية الشرف والرفعة والجلالة ـ وهو البارى تعالى ـ والأخرى فى غاية النزول والخسة والدنو ، وبينهما درجات ومنازل ومصاعد ومهاوى .

وحقيقة الجنة هى القرب من اللّه ومجاورة الحق الأوّل، لا المعنى المصدرى بل ما به يتقرّب منه ويتجاور ـ على قياس ماأشرنا فى معنى البعد عن رحمة الله ـ فمن هاهنا يعلم معنى جهنم بالذات وهى الهاوية ـ لكونها فى غاية الهبوط والنزول والبعد عن اللّه العلى العظيم والنار لكونها قطاعة نزاعة للشوى، والحطمة الكبرى لكونها يحطم ويهلك مايقع فيها لوقوعها فى حاشية العدم وليست بعدم محض ليحصل بها الخلاص، وشأن مايجاور العدم وليس بعدم ما أشار اليه تعالى بقوله: ﴿ويأتيه الموت من كلّ مكان وما هو بميت﴾ (ابراهيم(١٤): ١٧) وقوله: ﴿لا يموت فيها ولا يحيى﴾ (الأعلى(٨٧): ١٣).

فاذا علمت معنى الجحيم بالذات علمت معنى الجحيم بالاضافة، والقلب الانسانى كأنّه واقع بين طرفين ـ يمين وشمال ـ أو بمنزلة خط هندسى مشترك بين الضوء والظل، وطبقات جهنّم السبعة المتفاوتة فى ملاك المعنى المشترك وكذلك قياس معنى الجنة بالذات والجنان المضافة و درجاتها.

البصيرة الخامسة
فى معرفة أصحابها

و إذا علمت معنى جهنم و الجنان وتفاوت مراتب كلّ منهما بحسب الذاتية و العرضية، يمكنك أن تعرف أصحاب كلّ من طبقات النيران من أتباع الشيطان، وتعرف سكّان كلّ من درجات الجنان من عباد الرحمن بحسب الجوهر والذات، وتعلم أيضاً أنّ كلّ مايقرب الانسان الى الحق الأوّل ويشبهه الى الملائكة المقرّبين فهو منشأ ثواب اللّه له واستحقاقه رحمة الرحمن ودخول الجنان، وكلّ ما يقرّبه من عالم المواد السفلية ويدخله الى أبواب الدنيا الدنيّة وطلب مشتهياتها الخسيسة وترفّعاتها ورياستها الباطلة الزائلة فهو موجب مقت اللّه وغضبه عليه وسبب طرده وبعده عن ملكوته الأعلى.

فأفضل خلق اللّه وأولاهم برحمته ورضوانه ومجاورته وغفرانه، وأقربهم اليه مناسبة ومشابهة من لاحجاب بينه و بين الحق، وهم العقول القادسة المفارقة عن الأجسام بالكلية ـ ذاتاً وفعلا والتفاتاً ـ سواء كانوا بهذه المثابة فى القدس بحسب أصل الفطرة ـ كضرب من ملائكة اللّه المقرّبين ـ أو بحسب الاكتساب العلمى والعملى ـ كضرب من الأنبياء والأولياء المطهّرين ـ صلوات اللّه عليهم أجمعين ـ على تفاوت مراتبهم فى قصر النظر اليه وعدم الالتفات الى غيره.

فأجلّهم مرتبة وأحبّهم للّه عشقاً من لاالتفات له الى ذاته العارفة بالحق، المزينة بنور اللّه من حيث هى الذات، فضلا عن التفاته الى غيرها، فانّ الالتفات الى غير الله ـ وإن كان هو من الذات العارفة ـ بون وهجران، و ايثار العرفان من جهة كونه عرفانا ـ وإن كان بالحق ـ بعد وحرمان، وقصر النظر والالتفات الى المعروف به فقط دون غيره وصال وجنّة ورضوان.

وبعد هذه المرتبة مرتبة العشاق المشتاقين من أهل العرفان والايمان، كملائكة اللّه العمالة المدبّرة للأجسام، والنفوس الكاملة من الانسان، أمّا العشق فلعرفانهم وكمالهم ومنزلتهم وحالهم، وأمّا الشوق المستلزم لنار الحرمان وعذاب المفارقة، فلبقايا وجودهم والتفاتهم الى غيرالله، وبقايا قصوراتهم الامكانيّة المقتضية للتعلّقات بالأجرام.

فهم لأجل عرفانهم وايمانهم سكنوا درجات الجنان واختلفوا فى مراتب القرب من الرحمن بحسب مراتب عرفانهم قوة وضعفاً، ولأجل قصور ذواتهم عن تمام روح الوصال تأذوا أنواع أذى، إلّا أنهم حيث تنورّت عقولهم بالمعرفة والايمان، ولم يتكدّر ذواتهم بالجهل والعصيان، ولم يحتجبوا بظلمة الظلم والطغيان، لم يكن لهم أذى أليم، بل أذاهم أذى لذيذ، لكونه من قبل معبودهم وهم عارفون بأنّ الأذى من قبله، والعاشق إذا علم يقيناً أنّ ماينالهُ من الأذى ممّا حصل من جهةمعشوقه يفرح به، ويكون عين الأذى لذيذاً عنده؛ لأنّه يتصوّر وصول أثر المعشوق به اليه، و« وصول الاثر أثر الوصول» كما قيل.

وقد مثّل بعض العرفاء هذا الأذى اللذيذ فى العقليّات بأذى الحكمة والدغدغة فى الحسيّات، والفرق بين القبيلتين بعد كون أحدهما عقلياً والاخر حسيّاً، كما ذكره بعض المحققين: أنّ الأذى واللّذة فى الدغدغة متبائنان وجوداً ـ وإن كان الحس لايميّز بينهما لتعاقبهما ـ وهاهنا هما متحدان وجوداً.

فهاتان المرتبتان لأهل السعادة:

الأولى: منهما للمقرّبين الذين يقال لهم: «أهل اللّه». **والثانية**: لأصحاب اليمين الذين يقال لهم« أهل الفضل والثواب»﴿الذين آمنو وعملوا الصالحات﴾للجنة راجين لها راضين بها فوجدوا ماعملوا حاضراً من ثمرات أعمالهم ونياتهم على تفاوت درجاتهم ولكلّ درجات ممّاعملوا.

ومنهم أهل الرحمة الباقون على سلامة نفوسهم وصفاء قلوبهم بحسب الفطرة الأصلية من غير أن يفظظها مباشرة الأمور الأرضية الجاسية، المتبوؤن درجات الجنان لا على حسب كمالاتهم من ميراث عملهم ـ بل على حسب استعداداتهم من فضل ربّهم ورحمته التى يكفى لها مجرّد صفاء القابل وعدم المنافى ـ.

وبعد هاتين المرتبتين مرتبة نفوس مترددة بين جهتى الربوبيّة والسفالية وهم الذين خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً وهم قسمان :

أمّا المعفوّ عنهم رأساً لقوة اعتقادهم وعدم رسوخ سيئاتهم ـ إمّا لقلّة مزاولتهم إيّاها، أو لمكان توبتهم عنها﴿فأولئک يبدّل اللّه سياتهم حسنات﴾.

وأمّا المعذّبون حيناً بحسب ما رسخ فيهم من المعاصى حتى خلصوا عن درن ماكسبوا فنجوا، ويقال لهم أهل العدل والعفات ﴿والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ماكسبوا﴾ لكنّ الرحمة تتداركهم وتنالهم بالاخرة، فهذه المراتب الثلاثة الكلية على حسب تفاوت درجات النفوس الواقعة فى كلّ مرتبة منها لأصحاب الجنان على تفاوت مراتبهم فى القرب من الرحمن والبعد من الطاغوت والشيطان.

وأمّا أصحاب النار فهم ذوالنفوس المنحوسة المغموسة فى عالم الطبيعة التى لامفاصل لرقابها المنكوسة، ولانجاة لقلوبها المطموسة، لكونها إمّاجرمانيّة الذات فطرة أو اكتساباً، أوجرمانيّة الصفات والمتعلّقات بحسب مزاولة الأعمال الدنياويّات.

البصيرة السادسة
فى كيفيّة توزع الأرواح الانسيّة الى أصحاب الجحيم والدركات و أصحاب النعيم والدرجات بقول اجمالى

واعلم أنّ الانسان مركب بحسب نشأة حدوثه من عالمى الأمر والخلق، فله روح نورانى علوىّ من عالم الأمر ـ وهو الملكوت الأعلى ـ وله نفس ظلمانيّة سفلية من عالم الخلق. ولكلّ منهما نزاع وميل وشوق الى عالمه. فقصد الروح وميله ورغبته وشوقه أبداً الى عالمه وهو جوار ربّ العالمين، وميل النفس وقصدها الى عالمها وهو أسفل السافلين وغاية البعد عن الحق.

فبعث اللّه النبىﷺبصفة الرحمة واللطف ليزكىّ النفوس عن ظلمة أوصافها وسوء

أخلاقها وتحلّيها بحلية أنوار الأرواح، ليستحق بها جوار الحق وملكوته وقربة فى زمرة الأرواح المطهرة، فتزكيتها وتقديسها باخفاء ظلمات الأوصاف الحيوانيّة فى ابداء أنوار أخلاق الروح فى تحليتها بها، ليغلب نور الروح على ظلمة النفس ويقهرها ويكتمها فى كتم العدم والخفاء، فهذا مقام الأولياء مع اللّه﴿يخرجهم من الظلمات الى النور﴾.

وبعث الشيطان بصفة العزة والكبرياء والقهر الى أوليائه ـ وهم أعداء الله ـ ليخرج أرواحهم من النور الروحانى الى ظلمات الصفات النفسانيّة باخفاء أنوار أخلاقها فى ابداء ظلمات أخلاق النفس عليها، ليستحق بها دركة أسفل السافلين وغاية البعد عن الحق.

فمنهم المطرودون الذين حقّ عليهم القول وهم أهل الظلمة والحجاب الكلى، المختوم على قلوبهم أزلا كما قال تعالى: ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لايفقهون﴾(الأعراف(٧):١٩٧) الى قوله: ﴿كالأنعام بل هم أضل﴾وقوله تعالى: ﴿ولذلک خلقهم وتمّت كلمة ربّک لأملأنّ جهنّم من الجنة والناس أجمعين﴾(هود(١١):١١٩).

وقد ورد فى الحديث الربانى: «خلقت هؤلاء للجنة ولاأبالى وهؤلاء للنار ولا أبالى».[١]

ومنهم المنافقون الذين كانوا مستعدين فى الأصل قابلين للنور بحسب الفطرة والنشاة، ولكن احتجبت قلوبهم بالرين المستفاد من اكتساب الرذائل وارتكاب المعاصى ومباشرة الأعمال البهيميّة والسبعيّة، ومزاولة المكائد الشيطانيّة حتى رسخت الهيئات الغاسقة والملكات المظلمة فى نفوسهم، وارتكمت على أفئدتهم، فبقوا شاكّين حيارى تائهين، قد حبطت أعمالهم وانتكست رؤوسهم، فهم أشدّ عذاباً وأسوء حالا من الفريق الأوّل لمنافاة مسكة استعدادهم وقوة نفوسهم لحالهم كما تقدّم ذكره.

والفريقان هم أهل الجحيم والمتعلّقين بالهيولى، أحدهما أهل الحجاب والأخر أهل العقاب.

وقدأشار سبحانه فى أوائل القرآن الى الفريق الأوّل بقوله: ﴿إنّ الذين كفروا سواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون*ختم اللّه على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم﴾(البقرة(٢):٦-٧)والى الفريق الثانى بقوله: ﴿ومن الناس من يقول آمنّا باللّه وباليوم الاخر وماهم بمؤمنين*يخادعون اللّه والذين آمنوا ومايخدعون إلّاأنفسهم

---

١. خلقت هؤلاء للجنّة و بعمل أهل الجنّة يعملون ثمّ مسح ظهره فاستخرج منه ذريّة فقال: خلقت هؤلاء للنار و بعمل أهل النار يعملون. البحارالأنوار، ج٥، ص٢٦٩؛ مسند أحمد، ج١، ص٤٤؛ سنن أبى داود، ج٢، ص٤١٤

ومايشعرون*فى قلوبهم مرض فزادهم اللّه مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون﴾ (البقرة(۲) : ۸ـ۱۰) .

فانظر كيف كشف اللّه عن حال هذين الفريقين من أصحاب النار وبيّن وخامة عاقبة كلّ من الطائفتين فى عاقبة الدار ، وأثبت لكلّ منهما نوعاً يخصّه من الشرّ والوبال و فساد مايلزمه فى الاخرة والمآل :

فالفريق الأوّل لمّا كانوا من الأشقياء الذين هم أهل القهر الالهى ، لاينجح فيهم النصح والانذار ، ولاسبيل الى خلاصهم من النار ﴿وكذلک حقّت كلمة ربّک على الذين فسقوا أنّهم لايؤمنون﴾ (يونس(۱۰) : ۳۳) ﴿وكذلک حقّت كلمة ربّک على الذين كفروا أنّهم أصحاب النار﴾ (غافر(۴۰) : ۶) .

سدّت عليهم الطرق ، وأغلقت عليهم الأبواب ، إذ القلب هو المعشر الالهى الذى هو محل الالهام ، فحجبوا عنه بختمه ، والسمع و البصر هما المشعران للانسان اللذان هما بابان للفهم والاعتبار ، فحرموا عن جدواهما ، لامتناع نفوذ المعنى فيهما الى القلب ، فلاسبيل لهم فى الباطن الى العلوم الحقيقيّة الكشفيّة والمعارف الربّانية الذوقية ، ولا فى الظاهر الى العلوم التعليميّة و الآداب الكسبية ، فجسوا فى سجون الظلمات ، وبقوا حيارى فى أيدى الشهوات المتراكمات الموجبة للدثور والممات ، فما أعظم عذابهم وأغلظ حجابهم ! .

و أمّا **الفريق الثانى** من الأشقياء الذين سلب عنهم الايمان مع ادعائهم له بقوله : ﴿آمنّا باللّه﴾ وذلک لأنّ محل الايمان هوالقلب المصفّى والروح المجرد بالرياضة والمجاهدة مع القوى المدركة والمحركة وصرفها فى الأفكار القدسيّة والأنظار الحكميّة ، لا اللسان بفصاحة البيان وعلوم العربية وغرائب النكت فى محاسن الكلام ، فانّ الايمان متعلّق بعلم الحال لابطلاقة اللسان في المقال ﴿قالت الأعراب آمنّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولمّا يدخل الايمان فى قلوبكم﴾ (الحجرات(۴۹) : ۱۴) .

ومعنى قولهم ﴿آمنّا باللّه وباليوم الآخر﴾ ، ادعاء علم التوحيد وعلم المعاد ، الذين هما أصلان عظيمان من أصول الدين ، وأساسان كبيران من معارف الحق و اليقين ، أى : لسنامن المشركين المحجوبين عن الحق ، ولامن أهل الكتاب المحجوبين عن الدين والمعاد ، لأنّ أعتقاد أهل الكتاب فى باب المعاد ليس مطابقاً للحق .

وهؤلاء المنافقون قد غفلوا عن أنّ حقيقة الايمان باللّه واليوم الآخر ليس ممّا يتعلّق بالأقوال، بل هى ممّا أنعمه اللّه من الحكمة على من سدّ على نفسه باب وسوسة الشيطان، وأزال عن ضميره الشكوك والأوهام، ففتح على قلبه باب المعرفة والرحمة والرضوان، وأفاض اللّه عليه أنواع كرامته عاجلا وآجلا، فمن ذلك يفتح اللّه تبارك و تعالى باباً من خزائن حكمته وهى مختصة بمشيته لابمشية الخلق و دواعيهم، وجمعهم أسبابها من الكتب والأسانيد العالية من الاساتيد، فانّه تبارك وتعالى يؤتى الحكمة من يشاء.

وظنّ قوم من الفلاسفة وأرباب البحوث والأنظار أنّ الحكمة يحصل بمجرّد التكرار، أم هى من نتائج الأفكار، و ما فرقوا بين المعقولات والحكميات الالهيات، فالمعقولات مشتركة بين أهل الدين وأهل الكفر، وبين المقبول و المردود.

فالمعقول مايحكمه العقل ببرهان عقلى، وهذا ميسر لكلّ عاقل بالدراية وبالقرائة والرواية، فمن صفى عقله عن شوب الوهم و الخيال، فيدرك المعقولات بالبرهان دراية، ومن لم يصف عقله عن هذه الافات، فهو يدرك المعقول قرائة بتفهم أستاذ مرشد.

فأمّا الحكمة الالهية فليست من هذا القبيل، فانّ العقول عن دركها بذواتها محتجبة، والبراهين العقليّة والنقليّة عنها محتبسة، فانّها مواهب الحق ترد على قلوب الأنبياء والأولياء عند تجلّى صفات الأحديّة وفناء أوصاف الخلقية، فيكاشف الأسرار بحقائق معانى أورثتها تلك الأنوار، كما قال ﷺ: «أوتيت جوامع الكلم»[1] أى: الحكم، فامارة صحّتها معادلتها بحقائق القرآن، بل هى عينها كما قال ﷺ: «أوتيت القرآن وما يعدله[2]»[3] أشار بهذا الى الحكمة.

وقد فسّر سهل بن عبداللّه التّسترى الحكمة وقال فى تأويلها: هى السنة، فحقيقة الحكمة نور من أنوار صفات يؤيّد اللّه به عقل من يشاء من عباده، فيكون له كما قال تعالى: ﴿نور على نور يهدى اللّه لنوره من يشاء﴾ (النور(۲۴): ۳۵)، فمن أكرم بهذا النور فقد أعطى كلّ حبور وسرور و أوتى جوامع الحكمة خيراً كثيراً، كما قال تعالى: ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً﴾ (البقرة(۲): ۲۶۹).

فافهم واغتنم واجتهد أن تتيقظ به، لتكون من ذوى الألباب، لأنّه قال: ﴿وما يذكر إلّا

---

۱. كنز العمّال، ج۱، ص۳۷۱، ح۱۶۲۵؛ عوالى اللئالى، ج۴، ص۱۲۰، ح۱۹۴

۲. فى المصدر: مثليه أو و مثله معه

۳. مناقب آل أبى طالب، ج۱، ص۱۹۳؛ مسند أحمد، ج۴، ص۱۳۱؛ كشف الخفاء، ج۲، ص۴۲۳

أولوا الألباب﴾(البقرة(٢) : ٢٦٩) وهم الذين لم يقنعوا بقشور العقول باكتساب ظواهر المنقول، بل سعوا فى طلب لبّها بمتابعة الأنبياء، فأخرجوهم من ظلمات قشور العقول الانسانيّة الى نور لبّ المواهب الربانيّة، فيتحقّق لهم أنّ ﴿من لم يجعل اللّه له نوراً فماله من نور﴾(النور(٢٤) : ٤٠)، فانتبه يا مغرور المفتون بدار الغرور من مرقد الجهالة الحاصلة من الشعف والسرور بما عندك من القشور، فلا يغرنك باللّه الغرور.

ولنعد الى ما قصدناه ونرجع الى ما فارقناه من شرح الفريق الثانى من أهل العقاب، الذين أوتوا نصيباً من الكتاب حسبما كشف اللّه فضائحهم فى الاية ـ الثانية المنقولة آنفاً من الكتاب.

فاعلم أنّ الكفر هو الاحتجاب والحجاب ـ كما أشرنا اليه إمّا عن الحق كما للمشركين و إمّا عن الدين كما لأهل الكتاب، والمحجوب عن الحق محجوب عن الدين الذى هو طريق اليه ضرورة، و أمّا المحجوب عن الدين فقد لايحجب عن الله، فهؤلاء المنافقون المخادعون للّه وللمؤمنين ادعوا رفع الحجابين، فكذبوا بسلب الايمان عن ذواتهم، أى ليسوا بمؤمنين ماداموا كذلك.

ثمّ إنّ فى الآية دقيقة وهى أنّ المخادعة لكونها صيغة مفاعلة: «استعمال الخدع من الجانبين» وهو اظهار الخير واستبطان الشر، ومخادعة اللّه مخادعة رسوله لقوله: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع اللّه﴾(النساء(٤) : ٨٠) وقوله: ﴿وما رميت إذ رميت ولكنّ اللّه رمى﴾(الأنفال(٨) : ١٧)، ولأنّه حبيب اللّه وقد ورد فى الحديث «لايزال العبد يتقرّب الى اللّه» ـ الى آخر الحديث ـ.

فخداع المنافقين للّه وللمؤمنين اظهار الايمان والمحبّة واستبطان الكفر والعداوة، و خدع اللّه والمؤمنين ايّاهم مسالمتهم واجراء أحكام الاسلام عليهم بحقن الدماء وحصن الأموال وغير ذلک، و ادخار العذاب الأليم والمآل الوخيم وسوء المعيشة لهم، وخزيهم فى الدنيا لخسة حالهم وترددهم [الى] أبواب السلاطين لطلب الاشتهار، وتحملهم المشاق فى الأسفار و التعب فى الجمع والادخار، كلّ ذلک لافتضاحهم باخبار اللّه تعالى وبالوحى، وجحودهم العلوم الربانية والأسرار المعادية.

لکن الفرق بين الخداعين أنّ خداعهم لاينجع إلّا فى أنفسهم باهلاكها بموت الجهل و ايراثها الوبال والنكال بازدياد الظلمة و الحمق بالعناد والنفاق، و اجتماع أسباب الهلاک

والبعد عن الرحمة لطلب الرياسة والاخلاد فى الأرض والركون الى الشهوات .

وأمّا فى نفس المؤمنين بالحق فتوجب خداعهم إيّاهم زيادة فى تنوير قلوبهم وتصفية ضمائرهم لتخليتهم فى العبادات ، وتجرّدهم الى طلب الحق بالطاعات ، واشتغالهم بذكر اللّه فى الخلوات ، ومواصلة الأوراد على الدوام فى الساعات ، وعدم التفاتهم الى ماسوى اللّه تعالى للمحاجات اللازمة الاشتغال .

وخدع اللّه إيّاهم يؤثر فيهم أبلغ تأثير ويوبقهم أشدّ ايباقاً لقوله تعالى : ﴿ومكروا ومكراللّه واللّه خير الماكرين﴾(المنافقون(٦٣) : ٥٤)وهم من غاية تعمقهم فى جهلهم وحمقهم مائجون بذلك الأمر الظاهر لمرض قلوبهم وسكر نفوسهم كما أشار اليه سبحانه فى الاية المنقولة : ﴿فى قلوبهم مرض﴾أى : شك و نفاق﴿فزادهم اللّه مرضاً﴾(البقرة(٢) : ١٠) للمؤمنين و اذلاله للمنافقين ، والرذائل كلّها أمراض القلوب ، لأنّه أسباب ضعفها و آفاتها فى أفعالها الخاصة ، إلّا أنّ الجهل أعظم الأمراض ؛ لأنّه ممّا يوجب الهلاک فى العاقبة .

البصيرة السابعة

فى توضيح القول بأنّ المنافقين أسوء حالا وأشدّ عذاباً من الكافرين ، وإن كان هؤلاء أخس رتبة وأدون منزلة منهم

اعلم أنّ الجهل المركب لكونه صفة وجوديّة يصحبها العدم له نوع رتبة ، وأمّا الجهل البسيط لكونه صفة عدميّة منزلته منزلة الأعدام ، والعدم شرّ محض بالذات والوجود الذى يصحب العدم شرّ با لعرض مشوب بالخير ، فبالنظر الى الواقع لاشرّ ولاخسّة أبلغ ممّا يكون الشىء عدماً أو معدوماً ، وأمّا بالنسبة الى من يتعذّب و تألّم بالأمر المولم الوجودى ففقده عنه أولى من ثبوته له .

فشرارة المطرودين فى الأزل وإن كان أعظم لكونهم أبعد من منبع الخير والجود ، وأوغل فى الشرّ والمصيبة ، وأدخل فى العدم والخسّة والجهالة إلّا أنّهم لايحسون بما يولمهم ولايجدون شرية ما يوبقهم ويعذّبهم ، لعدم صفاء نفوسهم وفعليّة عقولهم كالعضو الميت أو المفلوج والخدر بالنسبة الى مايجرى اليه من القطع والجرح والكى وغيرها من الآلام .

وأمّا المنافقون فلثبوت استعدادهم فى الأصل وبقاء ادراكهم واستدعائهم للكمال فى هذه الدار وتشوقهم الى العلو والاستكبار ، يجدون شدة الألم باكتساب الأمر الموذى

المؤلم، فلا جرم كان عذابهم مؤلماً سبباً عمّا اكتسب قلوبهم من المرض العارض المزمن المؤلم الذى هوالكذب بآيات اللّه والجهل بالمعارف الربوبيّة ولوازم الايمان، والكفر بحقائق القرآن مع دعوى الكمال بادعاء المعرفة بأسرار المبدأ المتعال وتهييج الفتن والعداوة والبغضاء بين الناس، وتنظيم أمور الدنيا لأنفسهم خاصّة وأنّهما كهم فى اللذات، وملازمة أبواب السلاطين والحكام لطلب الحطام والشهوات، واحتجابهم بالمنافع الجزئية والمصالح البدنية والملاذ الحسيّة عن المصالح الكلية واللذات العقليّة، وحرمانهم عمّا يرد على قلوب السلاک والواصلين من الحالات الكشفية الجنانيةوالواردات الذوقية الملكوتية.

الى غير ذلک من الأفعال والأعمال، التى هى من عادات علماء السوء، الذين أوتوا نصيباً من الكتاب واكتفوا بقشور من العلوم الجزئية التى وصلت اليهم بالنقل والرواية من أهل التكلّم والخطاب، وقنعوا بصورة الأعمال من غير تفقد القلوب واصلاح النفوس عن الوسواس، وتتبع آثار أئمة الكشف والطهارة من أهل بيوت النبوة والولاية صلوات اللّه عليهم أجمعين و متابعة قلوبهم و ضمائرهم فى طلب مرضات الله والاجتناب عن محارمه، والزهد عن هذه الدار ومنزل الأشرار لطلب المنزلة عند اللّه ومقربيه وملكوته ومجاوريه فى دار القرار ومعدن الأخيار والأبرار.

وأشار سبحانه فى الآيتين المنقولتين الى ما ذكر من كون الكافرين أعظم عذاباً والمنافقين أشدّ ألماً بوجه لطيف، حيث وصف عذاب الفرقة الأولى بـ«العظمة»وعذاب الفرقة الثانية بـ«الايلام».

وفى المقام اشارة أخرى وهى أنّ الفرقة الأولى لكونهم أشدّ احتجاباً وأعظم ابعاداً عن الحق، فهم أشبه بأن يكونوا من جنس أصحاب النار وأهل جهنم بحسب الفطرة الأصليّة، بخلاف الفرقة الثانية، فانّ لهم جهة من القرب والمنزلة بحسب جوهر الاستعداد، ولكن ظلموا أنفسهم باكتساب الرذائل والاعتياد بزخارف عالم الأضداد، فالنار للأولى كالمنزل والمأوى، وللثانية كالسجن والمحبس للمحنة والبلوى.

وبالجملة فرق بين كون الشىء من أصحاب النار وكونه معذّباً بها، وليس من ضرورة كون الشىء مصحوباً بالشىء المؤلم أن يكون متألماً به، أو لاترى أنّ الزبانية ليسوا معذّبين بالنار مع كونهم فيها، وهم تسعة عشر قبيلةمن ملائكة العذاب الذين إذا قيل لهم: ﴿خذوه

فغلّوه ثمّ الجحيم صلّوه﴾(الحاقّة(۶۹) : ۳۱) ابتدروه سراعاً ولم ينظروه ، ولكلّ منهم أعوان وخدم من سدنة جهنم من دون أن يتعذّبوا بها و فيها ، بل فيها نعيمهم وبهجتهم ، وبالمباشرة ما أمرهم اللّه به حصلت سرورهم ولذتهم ، لكون ذلک غايتهم وفائدتهم من تعذيب المجرمين وأخذهم وتصليتهم الجحيم ، وسقيهم ماء الحميم وشرب الهيم .

البصيرة الثامنة

فى الكشف عن صيرورة الروح الانسانى من أصحاب النار بعد أن لم يكن منها ، بمزاولة أفعال الأشرار واكتساب ملكات الكفّار والفجّار ، من الأعمال الشهويّة والغضبيّة والشيطانيّة ، التى هى من صفات البهائم والسباع والشياطين

قال اللّه تعالى : ﴿قل هل أنبّئكم بشرّ من ذلک مثوبة عنداللّه من لعنه اللّه وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئک شرّ مكاناً وأضلّ عن سواء السبيل﴾ (المائدة(۵) : ۶۰)وأشار بقوله : ﴿جعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت﴾ ، إنّهم مسخوا عن الفطرة الأصليّة ، وانسلخوا وانقلبوا كلّ طائفة منهم الى نوع ماغلبت فيها صفات ذلک النوع ، حتّى صارت حقيقتها حقيقة واحدةوصورة ماهيتها صورته .

وهذا معنى اللعن والطرد والغضب عند العرفاء ، أى : صيرورة نوع الشريف نوعاً خسيساً ، ولهذا قال سبحانه : ﴿أولئک شرّ مكاناً وأضلّ عن سواء السبيل﴾ أى : عن طريق الحق ، لأنّ القردة والخنازير إنّما كانت ضالة عن طريق طلب الحق لعدم الاستعداد ، وأمّا هؤلاء الذين انسلخوا عن الفطرة فانّهم كانوا مستعدين لطلب الحق وسلوک سبيله ، فهم شرّ مكاناً كما قال : ﴿إنّ شرّ الدواب عند اللّه الصمّ البكم الذين لايعقلون﴾(الأنفال(۸) : ۲۲) وأضلّ سبيلا لابطال الاستعداد للوصول ، كما قال : ﴿أولئک كالأنعام بل هم أضل﴾ .

وتحقيق هذا المقام أنّ كلّ انسان ـ بحسب الفطرة ـ روحه التى هى من عالم القدس والخير والرحمة قابل للسّعادة الأبديّة ، وإنّما ينسلخ عن هذه الفطرة بحسب أعمال قوى يخصه : قوة الشهوة ، وقوة الغضب ، وقوة الوهم المنازعة للقوة العاقلة للروح مع كونها خادمة لها ، خلقها اللّه تعالى لأن يستعملها الروح فى طريق سفرها الى اللّه تعالى لتحصيل المراد للمعاد باستخدامها .

أمّا الشهوة فلجلب مايتغذى به وينفعه لحفظ البدن الذى بمنزلة المركب لسفرها .

وأمّا الغضب فلدفع مايضادّه ويمانعه ويقطع طريقها .

وأمّا الوهم فلتحصيل العلوم الضروريّة والحدود الوسطية التى يتوقّف عليها كماله ، وذلک الكمال معرفة نفسه التى هى أمّ الفضائل و معرفة مبدئه الذى منه بدو وجوده ، و معرفة اليوم الآخر الذى غاية رجوعه ، ومعرفة الملائكة والرسل صلوات اللّه عليهم ، الذين هم وسائط جوده ، ومعرفة كتب اللّه والأئمة الطاهرين المهديّين ـ سلام اللّه عليهم أجمعين ـ العارفين بحقائق التنزيل وأسرار التأويل التى هى واسطة كمال وجوده .

وقد أشار النبیﷺ الى هذا المعنى بقوله : «إنّى تارک فيكم الثقلين ، كتاب اللّه وعترتى» . [1]

وتحقيق كون معرفة الأئمّة والقرآن داخلة فى قوام الايمان مقوّمة لحقيقة الانسان ممّا حقّقناه فى مقامه بوجه لامرية فيه ولاريب يعتريه .

فالروح الانسانى متى كانت قواه الثلاث التى هى رؤساء جنوده الباطنية وخدمه وحشمه مسخّرة له منقادة مقهورة مطيعة لأوامره ونواهيه ، يكون حالته مستقيمة وبصيرته سليمة من العمى وسبيله مأمونة عن الغى والضلال ، وعاقبته محفوظة عن الشرّ والوبال .

ومتى كانت هى مستولية عليه ، والشهوات غالبة فيه ، والوسواس مضلّة إيّاه ، والدنيا بزخارفها مزينة فى نظره مرغوبة لديه مؤثّرة فيه مسترقية لرقبته ، والأغلال فى عنقه ، والأوزار مثقلة بظهره ، والسلاسل والتعلّقات فى أيديه وأرجله كان أسيراً بيدها محكوماً بحكمها ، كلّ منها يجرّه فى تيسير أسباب ما يستدعيه ، والتدبير فيما يشتاقه ويشتهيه .

فالشهوة تجره فى تحصيل الشهويات المستلذات ، والغضب يستعمله فى أفعال الانتقامات ودفع الخصومات ، فصار الروح شيطاناً مريداً بالفعل بعدما كان ملكاً كريماً بالقوة ، يستعمل فكره وتمييزه الذين أعطاهما اللّه لتدبير الاخرة والسعى لمرضاته فى استنباط وجوه الشرّ ، ويتوصل بها الى الأغراض بالمكر والحيلة والخداع ، واظهار الحقيقة فى معرض البطلان ، وترويج الشرّ فى موضع الخير .

وكلّ انسان ففيه شوب من هذه الأصول الأربعة ـ أى : الملكيّة والشيطنة والسبعيّة والبهيمية ـ من جهة روحه ونفسه وشهوته وغضبه ـ وكان المجموع فى عالم الانسان خنزير ، وكلب ، وشيطان ، وحكيم . فالخنزير هو صورة الشهوة فى أىّ مادة ومقدار ووضع و شكل كانت ، والكلب هو صورة الغضب فى أىّ مادة كانت .

---

١ . بصائر الدرجات ، ص٤٣٣ ؛ دعائم الاسلام ، ج١ ، ص٢٨

ونحن قدحقّقنا فى مباحث الماهية ولواحقها أنّ حقيقة كلّ شىء هى صورته التى بها هوهو، والمادة إنّما تحمل ماهيّته إذا كانت ضعيفة الوجود فى هذا العالم الأسفل الذى فيه دثور الأشياء وعجزها وضعف صورها لأجل علوق المواد والظلمات، وبيّنّا أيضاً بالوجوه الكشفية والبرهانية أنّ للاشياء التى تكون فى هذا العالم نشأة ثانية ونحواً آخر من الوجود، و أنّ للصور النوعية عالماً آخر يكون وجوداتها فى ذلك العالم مستغنية القوام عن المواد العنصرية، بل قائمة بذواتها موجودة بوجود فاعلها ومنشئها ومبعثها ـ لا بوجود قابلها وميلها ومغنيها.

وذلك الوجود الأخروى على ضربين، لأنّ تلك الصور إمّا عقليّات صرفة ومفارقات محضة مجردة عن المقدار والشكل، وإمّا صور مقداريّات، فالأولى لكونها نورانيّة محضة تدرك بالعقول الصافية ـ وهى جنّة المقرّبين، وأمّا الثانية فلكونها تدرك بالحواس الأخروية الباطنية من السمع والبصر والشم والذوق واللمس الأخرويات ـ التى هى بواطن هذه الحواس الأوليّات؛ لأنّها باقية بعد الموت وهذه فانية، كما يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿فكشفنا عنك غطائك فبصرك اليوم حديد﴾(ق(٥٠): ٢٢)، فبعضها نورانية ـ هى جنّة السعداء من أصحاب اليمين ـ وبعضها ظلمانية ـ هى جهنم الأشقياء من أصحاب الشمال ـ.

وجمهور الفلاسفة والمتكلّمون وأكثر علماء المذاهب ذاهلون عن هذين العالمين، وفى الذهول عنهما ضرر عظيم بالانسان، وفى الجهل بهما حجاب كثيف وغطاء غليظ له عن كشف معارف الايمان وحقائق القرآن.

هذا، ولنرجع الى ما كنّا فيه من أنّ الانسان قد اصطحبت فى عالمه ونظام خلقته أربعة شوائب، ولذلك اجتمعت عليه أربعة أصناف من الأوصاف: السبعية، والبهيميّة، و الشيطانيّة، والملكية. فهو من حيث تسلّط كلّ منها عليه يفعل أفعال نوع يكون تلك الصفة لازمة لذاته ناشية عن حقيقته، الى أن يغلب عليه احدى هذه الصفات بأن يصير خلقاً له وملكة راسخة فى نفسه صعبة الزوال، فيكون الانسان فى آخر الأمر ومنتهى العمر حكمه حكم ذلك النوع، بل ينقلب حقيقته يوم الآخر الى حقيقة ذلك، يكون صورته عند الحشر بعينها صورته كما سنوضّحه انشاءاللّه تعالى.

ونريد أن نبيّن ذلك وندلّ على تحقيقه بطرق ثلاث من الحكمة البرهانية، والخطابية الظنية، وصنعة المجادلة الالزامية كما قال تعالى سبحانه: ﴿أدع الى سبيل ربّك بالحكمة

والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن﴾(النحل(١٦) : ١٢٥) . ولنستدرج فى البيان من الأدنى الى الاعلى :

فالأوّل مايستحسنه الجماهير وتقبله الأسماع من النقول الواردة فى باب انقلاب صور الأشقياء وهيئاتهم يوم الآخرة الى مايناسب أفعالهم ونيّاتهم من القرآن والحديث والأخبار :

أمّا القرآن : فكقوله تعالى : ﴿أولئک کالأنعام بل هم أضلّ﴾(الأعراف(٧) : ١٧٩) وليس المراد أنّهم كذلک بحسب هذه النشأة الدنياوية ، بل فى النشأة الآخرة التى هى دار ظهور الأشياء على ما هى عليها﴿يوم تبلى السرائر﴾(الطارق(٨٦) : ٩) وقوله : ﴿ناكسوا رؤسهم﴾ (السجدة (٣٢) : ١٢)وقوله : ﴿إنّا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى الى الأذقان فهم مقمحون﴾(يس (٣٦) : ٨) وقوله : ﴿أفمن يمشى مكبّاً على وجهه أهدى أمّن يمشى سويّاً على صراط مستقيم﴾ (الملک(٦٧) : ٢٢) .

ولاشکّ عند ذوى البصائر أنّ مجعولات الحق فى الدار الاخرة من الأشكال والهيئات إنّما هى أمور طبيعية لازمة ليست كصناعيّات يمكن زوالها وانفصالها ، فيكون كالأعضاء فى كونها طبيعية ـ لا كالألبسة القابلة للانخلاع والانفصال ـ وإذا كان كذلک فاختلاف الأبدان فى هيئة الاعضاء وخلقة الاشكال دليل اختلاف النفوس فى الحقائق .

وكقوله تعالى : ﴿كأنّهم حمر مستنفرة*فرت من قسورة﴾(المدّثر(٧٤) : ٥٠ـ٥١)وقوله تعالى : ﴿فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾(البقرة(٢) : ٦٥) ، يعنى بحسب النفس مع بقاء البدن على صورته الظاهرة ، و إلّا يلزم التناسخ المستحيل ، فهم صاروا لانحطاطهم عن العالم العلوى الانسانى الى الأفق السفلىّ الحيوانىّ قردة مشابهين للناس فى الصورة وليسوا بهم فى النفس والعقل ، خاسئين : أى بعيدين طريدين .

والمسخ فى الحقيقة حقّ غير منكر فى الدنيا والآخرة ، كما وردت به الآيات والأحاديث ، وقد روى عنه ﷺ المسوخ ، ثمّ عدّهم وبيّن أعمالهم ومعاصيهم وموجبات مسخهم . حاصله : أنّ من غلب عليه وصف من أوصاف الحيوانات ورسخ فيه بحيث أزال استعداده الأصلى ويمكن فى طباعه ، وصار صورة ذاتية له ، كالماء الذى منبعه معدن الكبريت مثلا ، صار طباعه طباع ذلک الحيوان ونفسه نفسه ، فاتصلت عند المفارقة ببدن يناسب صفته ، فصارت صفته صورته ـ كما ستتضح .

وقوله : ﴿ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم﴾(الأسرا(۱۷) : ۹۷) أى على صور الحيوانات المنتكسة الرؤس . وقوله تعالى : ﴿قالوا لجلودهم لم شهدتم علينا﴾ (فصّلت (۴۱) : ۲۱) وقوله تعالى : ﴿تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعلمون﴾ (النور(۲۴) : ۲۴) يعنى أنّ صورة الكلب مثلا ولسانه ـ أى صورته الذى فعل لسانه ـ تشهد بعمله الذى هو الشرّ، وكذا غيره من الحيوانات الهالكة تشهد عليها أعضائها بأخلاقها الذميمة وأفعالها السيئة .

وكقوله : ﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء مايحكمون﴾(الجاثية(۴۵) : ۲۱) ، ولفظ « الجعل »فى كلام اللّه أكثر مايستعمل فى الذاتيات دون العوارض ، مثل قوله : ﴿خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور﴾(الأنعام(۶) : ۱) ، ﴿وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت﴾(المائدة (۵) : ۶۰)، وكقوله﴿ يوم يسبّحون فى النار على وجوههم ذوقوامس سقر﴾(القمر(۵۴) : ۴۸) ، وقوله : ﴿يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصى والأقدام﴾(الرحمن(۵۵) : ۴۱) .

وفى هذه الآيات دلائل واضحات على أنّ المجرمين انقلبوا فى صورهم الى صور الحيوانات الحجم المنتسكة الرؤوس ، التى فيها علامات الاحتجاب بالجحيم والانحباس فى الظلمات عن لقاء اللّه ومعرفته ، حيث لم يتحقّق فيها علامات الانفتاح وطلاقة الوجه وانكشاف الجسد كما فى المسجونين والمحبوسين بخلاف الانسان ، إذ فيه علامة أهل الجنّة الذين هم جرد مرد مكحلون .

ثمّ إنّ من علامات أهل الجحيم التى توجد فى أعجام الحيوانات عقد ثلاث أيضاً ، دالة على احتجابها وتقييدها بالقيود والأغلال :

إحداها : عقدة العمى فى الأعين عن مشاهدة آيات اللّه فى الافاق والأنفس وعن رؤية كتاب اللّه وقرائته .

وثانيتها : عقدة الصمم فى الآذان عن استماع البيان والبرهان لكلامه .

وثالثتها : عقدة الانتكاس لنفوسها والانقلاب لأبدانها المعلّقة الى أسفل .

ولهذه العقد الثلاث عقد ثلاث أخرى شاهدة عليها :

إحداها : عقدة اللّسان بشهادة صمم الآذن ، فانّ الأصم الفطرى أبكم لامحالة .

والثانية : عقدة اليدين ، غلّت أيديهم بما لعنوا ، بشهادة عمى العين ، فانّ الأعمى الفطرى لايمكن أن يكتب .

والثالثة: عقدة الاستلقاء فی البدن بشهادة الانتکاس فی النفس.

فهذه الأمور الثلاثة شواهد علی تلک، إذ من المقرّر عند الجمهور أنّ اللسان خلیفة الأذن، والید الکاتبة خلیفة العین، والبدن خلیفة النفس، فانقلابه دلیل انتکاسها وانسلاخها عن الفطرة، کما أنّ انحناء الغلاف دلیل لانحناء السیف.

وأمّا الحدیث:

فقد روی عن النبی صلی الله علیه و آله أنّه قال: «یحشر الناس علی وجوه مخلفة» أی علی صورة مناسبة لأخلاقهم ونیّاتهم المختلفة.

وکقوله صلی الله علیه و آله: «کما تعیشون تموتون وکما تموتون تبعثون»[1]، ولاخفاء فی أنّ بعض الناس لایعیشون إلّا کالبهائم، وبعضهم کالسباع، وبعضهم کالشیاطین، فیکونون یوم المحشر علی صور أعمالهم ومعاصیهم.

وروی أیضاً عن النبی صلی الله علیه و آله مامعناه: «أنّه یحشر من خالف الامام فی أفعال الصلوة ورأسه الحمار، فانه إذا عاش فی المخالفة مع الامام و هی عین البلاهة والحماریة تمکنّت و رسخت فیه هذه الصفة ولتمکن البلادة والحماقة فیه یحشر علی صورة الحمار.[2]

وروی الشّیخ الجلیل عماد الاسلام محمد بن یعقوب الکلینی ـ رحمة اللّه ـ فی کتاب الکافی بسنده المتصل الی أمیر المؤمنین علیه السلام، أنّه قال ـ فی حدیث طویل ـ: «فان کان[لله] ولیاً أتاه أطیب الناس ریحاً وأحبهم[3] منظراً وأحسنهم ریاشاً فقال: أبشر بروح وریحان و جنّة ونعیم، ومقدمک خیرمقدم. فیقول له: من أنت؟ فیقول: أنا عملک الصالح».

ثمّ قال علیه السلام: «وإذا کان لربّه عدواً فانّه یأتیه أقبح من خلق اللّه زیّاً وأنتنه ریحاً، فیقول: أبشر بنزل من حمیم وتصلیة جحیم.[4]

وروی أیضاً فی الکافی فی حدیث آخر عن الامام أبی عبداللّه علیه السلام: «فیقول: أنا رأیک الحسن الذی کنت علیه وعملک الصالح الذی کنت تعمله».[5]

---

۱. عوالی اللئالی، ج۴، ص۷۲، ح۴۶

۲. مسند أحمد، ج۲، ص۲۶۰؛ سنن الدارمی، ج۱، ص۳۰۲

۳. فی المصدر: أحسنهم

۴. الکافی، ج۳، ص۲۳۲، ح۴۷۰۸

۵. الکافی، ج۳، ص۲۴۲، ح۴۷۳۱

وهذان الحديثان عن أهل البيت عليهم السلام صريحان فى تجسّم العقائد والأعمال فى النشأة الأخرة، والاعتقاد هوالأصل ومنه يتمثّل ويتصوّر ذات الشخص، والعمل هوالفرع ومنه يحصل القرناء والأصحاب والحواشى والتوابع إن خيراً فخير و إن شراً فشر.

وممّا يدلّ على ما ذكرناه ما روى أيضاً فى الكافى فى باب ادخال السرور على المؤمن عن أبى عبدالله عليه السلام قال ـ فى حديث طويل ـ: «إذا بعث الله المؤمن عن قبره خرج معه مثال يقدمه أمامه، كلّمارأى المؤمن هولا من أهوال يوم القيامة قال له المثال: لاتفزع ولاتحزن وأبشر بالسرور والكرامة من اللّه تعالى حتى يقف بين يدى اللّه، فيحاسبه حساباً يسيراً ويأمر به الى الجنة و المثال أمامه فيقول له المؤمن رحمك الله نعم الخارج كنت معى من قبرى و مازلت تبشّرنى بالسرور و الكرامة من اللّه حتى رأيك ذلك. فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا السرور الذى كنت أدخلته على أخيك المؤمن فى الدنيا، خلقنى اللّه منه لأبشّرك»[1].

وممّا ورد فى روايات أصحابنا الاماميين ـ رضوان اللّه عليهم أجمعين ـ ما روى عن قيس بن عاصم، قال: وفدت مع جماعة من بنى تميم على النبى صلى الله عليه وآله فدخلت عليه و عنده الصلصال بن الدلهمس، فقلت: «يا نبى اللّه عظنا موعظة نتنفّع بها فانّا قوم نسير فى البرية».

فقال رسول اللّه صلى الله عليه وآله: «يا قيس إنّ مع العزّ ذلا، و إنّ مع الحياة موتا، و إنّ مع الدنيا آخرة، و إنّ لكلّ شىء رقيباً، وعلى كلّ شىء حسيباً،[2] و إنّ لكلّ أجل كتاباً، و إنّه لابدّ لك يا قيس من قرين يدفن معك وهو حىّ، وتدفن معه وأنت ميّت، فان كان كريماً أكرمك، و إن كان لئيماً أسلمك، ثمّ لا يحشر إلّا معك ولاتحشر إلّا معه، ولاتسئل إلّا عنه، فلا تجعله إلّا صالحاً، فانه إن صلح أنست به وان فسدلا تستوحش إلّا منه وهو فعلك».

فقال: يا نبى اللّه أحب أن يكون هذا الكلام فى أبيات من الشعر، نفتخر به على من بيننا من العرب وندّخره. فأمر النبى صلى الله عليه وآله من يأتيه بحسّان، فاستبان لى القول قبل مجىء حسّان، فقلت: «يارسول اللّه قدحضرنى أبيات أحسبها توافق ماتريد» فقلت:

1. ثواب الأعمال، ص ۱۵۰
2. فى المصدر: و إنّ لكلّ شىء حسيبا، و على كلّ شىء رقيباً

تـخـيّر خـلـيـطاً من فعالـک إنّـمـا   قرين الفتی فی القبر ما کان يفعل
فـان کنـت مولا بشـیء فلاتـکـن   بغير الذی يـرضی به اللّه تشغـل
فلن يصحب الانسان من بعد موته   و مـن قبله إلّا الذی کـان يعمـل[1]

وفی هذا الحديث فوائد شريفة فوق ما نحن بصدده من انقلاب الانسان الی ما يوافق اعتقاده ويناسب أعماله أسرار علمية لطيفة، ومعارف الهيّة، ورموز نبويّة لايفی بکشفها وتوضيحها التعليم والبيان، بل لايلوح تحقيقها إلّا لأهل اللّه من جهة الکشف والعيان لابطريق الحجّة والبرهان.

ثمّ ممّايدلّ علی هذا المطلب من الأخبار المشهورة ما[2] روی: «أنّ الناس يحشر علی نياتهم و أنّ بعض الناس يحشر علی صورة تحسن عندها القردة والخنازير. فعليک بالتقوی ثمّ بالتقوی.

وأمّا الطريقة الثانية:

فکما ذکره صاحب احياء العلوم حيث قال: «أنّ خاصيّة الانسان العلم والحکمة، وأشرف أنواع العلم هو العلم باللّه وصفاته وأفعاله، فبه کمال للانسان وفی کماله سعادته وصلاحه لجوار حضرة الکمال والجلال، فالبدن مرکب للنفس والنفس محلّ للعلم، والعلم هو المقصود من الانسان وخاصيّته التی لأجلها خلق، فانّ الانسان يشارک الحمار والفرس فی أمور يوافقها ويفارقها فی أمور هی خاصيّته، وتلک الخاصيّة من صفات الملائکة المقرّبين.

والانسان أوّلا علی رتبة بين البهائم والملائکة، فمن يستعمل قواه فی العلم والعمل فقد شبّه بالملائکة، فحقيق بأن يلحق بهم وجدير بأن يسمّی ملکاً وربانيّاً، کما قال تعالی: ﴿إن هذا إلّا ملک کريم﴾(يوسف(۱۲): ۳۱)، ومن صرف همّته الی اتّباع اللذات البدنية يأکل کما تأکل الأنعام، فقد انحطّ الی حضيض أفق البهائم، فيصير إمّا أکولا کثور، وامّا شرهاً کخنزير، وإمّا ضريّاً ککلب، أو حقوداً کجمل، أو متکبّراً کنمر، أو ذاروغان کثعلب، أو يجمع ذلک کلّه کشيطان.

وقال: «فهو من حيث أنّ اللّه سلّط عليه الغضب يتعاطس أفعال السّباع من العداوة والبغضاء والتهجم علی الناس بالضرب والشتم، ومن حيث سلّط عليه الشهوة يتعاطی أفعال

۱. الأمالی للصدوق، ص۵۱
۲. المحاسن، ج۱، ص۲۶۲، ح۳۲۵؛ الکافی، ج۵، ص۲۰، ح۱

البهائم من الشره والحرص والشبق وغيره، ومن حيث سلّط عليه الروح وهو أمر ربّانى كما قال اللّه تعالى: ﴿قل الروح من أمر ربّى﴾(الاسراء(١٧): ٨٥)، فانّه يدّعى الاستعلاء على الأشياء بالحكمة والمعرفة والاحاطة بحقائق الأمور، ومن حيث يختصّ من البهائم بالتمييز والرويّة واستعمال الحيل والتدابير الجزئية حصلت فيه شيطانيّة يستعمل الجربزة فى استنباط الشرور والحيوانية ويتوصّل بها الأغراض النفسانية فيتعاطى أفعال الشيطان.

ففى باطن الانسان أمور أربعة: خنزير وكلب وشيطان وحكيم. فالخنزير هو الشهوة، فانّه لم يكن الخنزير مذموماً للونه وشكله وهيئته، بل لجشعه وكلبه وحرصه. والكلب هو الغضب، فانّ السبع الضارى والكلب العقور ليسا سبعاً وكلباً باعتبار الهيئة واللون والشكل، بل باعتبار روح معنى السبعيّة والضراوة والعدوان والعقر، وفى باطن الانسان ضراوة السبع [وغضبه] وحرص الخنزير وشبقه.

فالخنزير يدعو بالشرة الى الفحشاء والمنكر، والسبع بالغضب الى البغى والظلم والايذاء، والشيطان لايزال يهيج شهوة الخنزير وغيظ السبع يغرى أحدهما بالآخر ويحسن لهما ماهما مجبولان عليه.

والحكيم الذى هو مثال العقل مأمور بأن يدفع كيد الشيطان ويقطع وسوسته ومغلطته بالبرهان، حتى ينكشف تلبيسه ببصيرته النافذة ونوره المشرق، وبأن يكسر شره هذا الخنزير بتسليط الكلب عليه، إذ بالغضب يكسر سورة الشهوة ـ ويدفع ضراوة الكلب بتسليط الخنزير عليه، ويجعل الكل[١] مقهوراً تحت سياسته، فان فعل ذلك وقدر عليه اعتدل الأمر وظهر العدل فى مملكة البدن وجرى الكلّ على صراط مستقيم، وإن عجز عن قهرها قهروه واستخدموه، فلايزال فى استنباط الحيل وتدقيق الفكر ليشبع الخنزير ويرضى الكلب، فيكون دائماً فى عبادة كلب أو خنزير.

وهذا حال أكثر الناس، وهم الذين كان أكثر هممهم إمّا الفرج والبطن، أو مناقشة الأعداء والعجب والتكبر، ثمّ العجب منه أنّه ينكر على عبدة الأصنام عبادتهم للحجارة، ولو كشف الغطاء [عنه وكوشف] بحقيقة حاله ومثّل له حقيقة حاله كما يمثل للمكاشفين، لرأى نفسه ما ثلابين يدى خنزير، ساجداً له مرة وراكعاً له أخرى ومنتظراً لاشارته وأمره، ومهماهاج الخنزير ويطلب شيئاً من شهوته انبعث على الفور فى خدمته باحضار شهوته، او رآها ما

---

١. فى المصدر: الكلب

ثلابين يدى كلب عقور عابداً له مطيعاً لما يقتضيه ويلتمسه، مدققاً بالفكر فى حيل الوصول الى طاعته، وهو بذلك ساع فى خدمة شيطانه، فانّه الذى يهيج الخنزير ويثير الكلب ويبعثهما على استخدامه، فهو من هذا الوجه يعبد الشيطان بعبادتهما.

فليراقب كلّ عبد حركاته وسكناته ونطقه وقيامه وقعوده، ولينظر بعين البصيرة فلايرى أن أنصف نفسه إلّا ساعياً طول النهار فى عبادة هؤلاء، وهذا غاية الظلم إذ جعل المالك مملوكاً، والربّ مربوباً والسيّد عبداً، إذ العقل هو المستحق للسيادة والقهر والاستيلاء على هذه الأشياء، وقد سخره لخدمة هؤلاء، فلاجرم ينتشر الى قلبه من طاعة هؤلاء الثلاثة صفات تتراكم عليه حتى يصير طبعاً و ريناً مهلكاً للقلب و مميتاً له و لا يزال يتراكم عليه الصفات السبعيّة والبهيميّة والشيطانيّة مرّة بعد أخرى الى أن يسود ويظلم ويصير بالكلية محجوباً عن الله، وهوالطبع والرين المذكور فى قوله تعالى: ﴿بل ران على قلوبهم ماكانوا يكسبون﴾(المطففين(٨٣): ١٤) وقوله: ﴿ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون﴾(الأعراف(٧): ١٠٠) انتهى.

ويظهر من هذا الكلام ـ الصحيح المقدّمات ـ أنّ الانسان إذا غلب على ذاته الصفات السبعيّة والبهيميّة والشيطانيّة ـ بعضها أو كلّها ـ ويصير بحيث لم يبق فيها آثار الملكيةمن العلم الالهى والزهد عن الدنيا والورع عن محارم اللّه أو يوجد فيه بعض آثارها ولكن يكون مقهورة مغلوبة لغاية العلّة والضعف مع عدم المعرفة ـ كبعض الأفعال الحسنة الصادرة عن بعض الأشقياء اتفاقاً أورياء لامن جهة ملكة الايمان والعرفان ـ فهذا الشخص الانسانى لامحالة لايكون بحسب الحقيقة فى القيامة إلّا بهيمة أو سبعاً أو حيواناً مركباً منهما أو شيطاناً محضاً، إذ الآثار وجوه المؤثرات، والأفعال عنوانات الفواعل.

وقدثبت فى العلوم الحقيقية أنّ القوى تعرف بأفاعيلها، أولاترى أنّ المنطقيين جعلوا لوازم الفصول والأجناس بمنزلة الفصول والأجناس فى حدود الأشياء وجعلوا الحساس فصل الحيوان والناطق فصل الانسان فى تحديدهما مع أنّ حقيقة الفصل فى الحيوانات ليس إلّا جوهر نفسه ـ كما صرّح به صاحب الشفاء.

فاذا صار الانسان بحيث استحكمت فى نفسه صفات البهائم والسباع، وصارت هذه الذمائم خلقاً له وملكة لها، وبطل الاستعداد الذى كان أوّلا فى نفسه لتحصيل الكمالات العلميّة والعمليّة قبل استحكام الدواعى البهيميّة والسبعية، وطبعت على قلبه الهيئات

المظلمات والملكات المسوّدات فمن أين وأنّى تبقى له أثر من آثار الروح المجرّدة التى شأنه العرفان بالله و ملكوته والتقدّس عن البدن وناسوته؟ إذ الانسان انسان بروحه المقدّسة وبحصة ملكيّته التى فيه بالقوة لابدنه الظلمانى و نفسه الحيوانية، وإنّه بتقوية جانب الروح وامدادها بالعلم والعمل يكون مرتفعاً عن أفق الحيوانات الهالكة ويصير من جملة الملائكة المكرمة بالفعل بعد ما كان بحسب الفطرة ملكاً بالقوة، وباهمال جانب الروح وتقوية القوى الحيوانية يبطل استعداده الملكى التى بها قوام الانسان من حيث هو انسان.

فاذا بطل هذا الاستعداد فقد هلك انسانيّته، ولكن لاينعدم بالمرّة فيخلص من العذاب الهون، لقيام البراهين الشرعيّة والعقليّة على بقاء سنخ الانسان فى النشأة الثانية، بل يبقى بقاء لاموت فيه ولاحياة ولاخلاص معه ولانجاة، إذ ليست حياته المعرفة والقدرة، بل حياته الانفعال والغصة، والعذاب والنكال فيبقى أسيراً فى كرب السعير، محترقاً بنار الشهوات، ملسوعاً بلسع الحيّات ﴿كلّمانضجت جلودهم بدّلناهم جلوداً غيرها ليذوقواالعذاب﴾ (النساء (۴): ۵۶).

وفى هذه الاية أيضاً دلالة على أنّ نفوس الفجار انقلبت الى الحيوانات فى تلك الدار، إذ لو بقيت معهم الروح الانسانية التى هى محل معرفة اللّه لم يتطرق اليهم الفساد و الاضمحلال مرّة بعد مرّة، لنهوض القواطع على أنّ محل المعرفة جوهر قائم بذاته، ووجوده العقلانى يكون بالفعل أبداً مخلّداً من غير تغيّر وزوال وتجدّد وانتقال فافهم.

وأمّا المنهج الحكمى البرهانى الكاشف عن الرموز النبويّة والحقائق القرآنيّة ومسلك العقل الفرقانى الشارح لأسرار العقل القرآنى:

فاعلم أنّ للنوع البشرى فى أوّل نشأته يكون جوهراً نفسانيّاً سمّاه الحكماء بـ«العقل الهيولانى» وهو الجوهر الذى به تمام الماهية الانسانيّة بحسب أوّل درجاتها فى الانسانيّة ـ وهو أوّل منزل من منازل سفره الى الحق ـ وهذا الجوهر من شأنه أن يقبل كلّ صورة وحال وحلية وكمال، فان عسر عليه شىء فامّا لأنّ ذلک الشىء فى نفسه ضعيف الوجود شبيه بالعدم ـ كالخلاء واللانهاية والهيولى والزمان والحركة ـ وإمّا لأنّه شديد الوجود وقوى الظهور فيغلب عليه ويقهره.

وهذا الجوهر صورة تمامية لمواد هذا العالم، بمعنى أنّ الطبيعة بقوتها القابلة الجسمانيّة وصلت الى هذه الصورة الانسانية بعد طى مراتب الصور الطبيعية، التى كانت دونها فى

هذا العالم من صور العناصر والمعادن والنباتات والحيوانات .

وقد ثبت فى العلوم البرهانية أنّ الطبيعة فى المركبات وفى سلسلة العائدات التى هى من الهيولى التى للعنصريات الى أشرف ما يتصوّر من الصور التى فى أنواع الأجسام ما لم تتخط النوع الأخس بشرائطه ولوازمه لم تدخل فى النوع الأشرف، فما لم تستوف درجات الجماد والنبات والحيوان لم تنته نوبة الوجود الى نوع الانسان بحسب أوّل درجته .

فالنفس الانسانية هى كمال هذا العالم وزينته وتمامه وغايته، ولها وجهان يكون لها باعتبارها قوتان :

أحدهما : وجهه الى هذا العالم، به تدبّر البدن و تحركه و تباشر الأفاعيل الحيوانيّة المختصة بهذه الدنيا، يقال لها «القوة العمليّة» «العقل العملى»

وثانيهما : وجهه الى العالم الأعلى، به تنفعل عن المبادى وتعقل العلوم والمعارف وتترقى الى الكمالات الأخرويّة من المحبة الالهيّة والاشتياق الى لقاءاللّه و ابتغاء مرضاته .

فهى بحسب القوة العمليّة أمر بالفعل وصورة فى البدن العنصرى وغاية لانقلابات العنصريات والاستحالات الطبيعية، فكانت أولّا قوة هيولانية، ثمّ تراباً، ثمّ ماء مهيناً، ثمّ علقة، ثمّ مضغة، ثمّ بدناً ذا عظام و لحوم وأمشاج، ثمّ يوناً سميعاً بصيراً، الى أن تبلغ جوهراً من شأنه قبول معرفة اللّه تعالى وطاعته، إمّا شاكراً أو كفوراً، كما قال تعالى : ﴿هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكورا ﴾(الانسان(۷۶) : ۱) .

وبحسب القوة العلمية النظرية أمر بالقوة ومادة ساذجة صرفة عن الصورة ولوح غير منقوش ومرآة مجلوة ليس فيها شىء من الصور والكمالات التى لانشاهد بهذه الحواس، ولايرى بهذا العين من العلوم والأخلاق، سواء كانت علوماً حقّة وأخلاقاً حسنة أو كانت ملكات باطلة زائلة .

فان قلت : كيف يتصوّر وجود مادة لاصورة لها وقوة محضة لافعلية ولاقوام لها؟ إذ كلّ موجود له صورة مقوّمة؟ وثبت أيضاً فى التعاليم أنّ تجرّد الهيولى من الصورة مستحيل؟

قلنا : قد أشرنا الى أنّ الجوهر بحسب هذه النشأة صورة محضة، وبحسب النشأة الأخروية مادة محضة، والمستحيل إنّما هو وجود الهيولى المحضة التى ليست لها صورة بوجه من الوجوه وبحسب نشأة من النشئات .

فان قلت : إنّ الحكماء أقاموا البراهين على أنّ البسيط الخارجى لايمكن أن يكون فعلا

وقوة معاً لعدم اختلاف الجهتين الخارجيتين، وبه أثبتوا التركيب فى الجسم ـ بما هو جسم ـ من مادة وصورة، فأثبتوا مادة سوى الجسم، هى أبسط منه ويتقوّم منها ومن الجزء الصورى والجسم المطلق.

قلنا: ذلک مسلم فى وجود واحد و نشأة واحدة، وأمّا كون شىء واحد صورة فى عالم أدنى ومادة فى عالم أعلى فهو غير مستنكر، وخصوصاً إذا كان لتلك الصورة شوب قوّة مّا لأجل تعلّقها بالمادة البدنية، بل نفس كونها صورة جسمانية يستلزم نقصاً و قصوراً و ضعفاً و امكاناً يستدعى غاية وتمامية وصورة ـ وتحت ذلک سرّ.

فاذا تحقّق ماذكرنا فنقول: كلّ مادة ـ سواء كانت جسمانية أو روحانية ـ فانّما تصير محصلة موجودة بالفعل بصورة تحصلها وتقومها.

فان كانت مادة جسمانية من مواد هذا العالم قابلة للصور الحسيّة فهى إنّما يتقوّم بصور محسوسة هى كمالها الأوّل وما يتبعها هو الكمال الثانى ـ كالصور العنصرية وما يتبعها من الكيفيات، وكالنفس الحيوانية وما يتبعها من الشهوة والغضب والرجاء والخوف واللذة والألم وغيرها.

وإن كانت مادة روحانية فهى إنّما يتقوّم ويستكمل بالصور الروحانية والأخلاق و الملكات، وهى إمّا صور عقلية لمعلومات مفارقة الذوات عن الأجسام وجوداً أو تأثيراً كالاله وضرب من الملائكة المقرّبين ـ و أخلاق مناسبة لها ـ كالعبودية التامة والزهد الحقيقى والفناء والهيمان والعشق الروحانى والمحبة الالهيّة ـ و إمّا هى صور خيالية، وهى إمّا حكاية عن العقليّات المحضة، أو مأخوذة عن الأمور الجسمانية متعلّقة بالمعلومات الجزئية والصور الحسية ـ فالأولى كما للعرفاء، والثانية كما للصلحاء، والثالثة كما للعوام.

فاذا كانت النفس الانسانية فى أوّل تكونها هيولانية الذات بالقياس الى الصورة الغير المحسوسة التى لايشاهد بالحواس فما لم يصر مصورة بقوّة مقومة إيّاها لم يتحصل نوعاً يمكن بقائها فى عالم آخرغير هذا العالم المحسوس باحدى الحواس الظاهرة، لكونه من عالم الشهادة ـ وعالم الغيب لايطالع بهذه المشاعر بل بمشاعر أخرويّة غير داثرة.

ثمّ إنّ تلبس المادة بقوتها الاستعداديّة لكلّ صورة ناقصة تمنعها عن التلبس بالصورة الكاملة ـ كما نشاهد فى مواد هذا العالم كالقوة الهيوانيّة الانسانيّة: كانت أوّلا مصوّرة بالصورة المنوية، ثمّ انقلبت عنها الى النباتية، ثمّ الى الحيوانية، ثمّ الى الصورة الانسانية

التی هی مرتبة العقل الهیولانی وهی نهایة الجسمانیّات فی الشرف و الکمال و بدایة الروحانیات، القابلة للعقل الفعّال، فهو مجمع البحرین و طراز العالمین و حدّ جامع و برزخ حاضر بین بحری الجمسانیات والروحانیّات، ویسمّی بـ«القلب» لهذا، لکونه ذو وجهین، وتقلّبه بین اصبعین من أصابع الرحمن.

فان نظرت الی ذات النفس وفعلیّتها فی هذا العالم فوجدتها مبدأ القوی الجسمانیة ومستخدم الآلات الاحساسیة والتحریکیة، ویکون سائر الصور الطبیعیة الحیوانیة والنباتیة والجمادیة من آثارها ولوازمها، فهی صورة الصور وغایة الغایات، وثمرة شجرة العالم العنصریّات، بل الجسمانیة فی عالم الشهادة.

و إذا نظرت الیها بحسب نسبتها الی الوجود الروحانی فوجدتها قوة محضة وفاقة صرفة لارتبة لها عند سکّان عالم الغیب وعالم الآخرة، نسبتها الی الصورة الأخرویّة نسبة البذر الی الثمار، والنطفة الی الحیوان، فانّ البذر بذر بالفعل ثمرة بالقوّة، والنطفة نطفة بالفعل، حیوان بالقوّة، والبذر لیس ثمرة، والنطفة لیست حیواناً إلّا بضرب من المجاز، فالعقل الهیولانی لاوجود له فی عالم الاخرة ما لم یحصل له جهة فعلیة روحانیة، ولهذا ذهب بعض الحکماء الی بطلان النفوس الخالیة عن العلوم بعد بوار البدن وخراب الدنیا.

فحال البصیرة الانسانیة کحال البصر، ومنزلتها بالقیاس الی مایفید وجودها بالفعل والی ما به یحصل بالفعل ـ بعد أن کانت بالقوّة ـ منزلة الباصرة بالقیاس الی جوهر الشمس والنور الذی یفیده ویصیر مبصرة بالفعل ومدرکاتها من الألوان مرئیة بالفعل بعد أن کانت هی رائیة بالقوة.

إذ کما أنّ البصر لیست فی ذاتها کفایة فی أن تصیر مبصرة بالفعل، و لا فی ذوات الألوان کفایة فی أن تصیر مرئیة بالفعل، بل الشمس تعطی البصر ضوءاً وتعطی الألوان ضوءاً بذلک الضوء صارت هی مبصرة بالفعل والألوان مبصرة بالفعل، فکذلک اشراق الروح القدسی المسمّی عند الحکماء بـ«العقل الفعال» وعند أئمة الفرس بـ«روان بخش» تفید العقل الهیولانی والصورة الهیولانیة المخزونة فی الخیال نوراً روحانیاً، منزلته من العقل الهیولانی منزلة الضوء من البصر، وبه یعقل الأشیاء التی کانت معقولة بالقوة.

واعلم أنّ القوّة فی باب العاقلیة والمعقولیّة ـ کسائر الأشیاء التی تکون بالقوّة ـ قد تکون بعیدة وقد تکون قریبة، فالبعیدة فی العاقلیّة کما فی العقل الهیولانی الذی هو جوهر متعلّق

بالمادة المحسوسة، وفى المعقوليّة كما فى الصور النوعية المادية التى من شأنها أن تصير معقولة للانسان، وأمّا القريبة فعندما يحدث فيه عن رسوم المحسوسات التى حفظتها فى القوّة المتخيّلة معقولات أولّ اشترک فى نيلها جميع الناس لحصول بعضها بلا تجربة وقياس واستقراء أو بتجربةسهلة الحصول كقولنا : كلّ أرض ثقيلة، فحصول هذه المدركات الأولّية له يجعله عقلا بالملكة يوجب لها استعداداً قريباً لصيرورته عقلا بالفعل، ولصيرورة الصور المادية معقولة له بالفعل.

فحصول الأوليّات كمال أولّ لما بالقوة، تؤدى الى كمال ثان هو نور من أنوار اللّه يقذف فى قلب المؤمن المجاهد فى سبيل اللّه مع أعداء اللّه من القوى الجسمية والدواعى الظلمانية، وخصوصاً القوّة الوهمية التى تمانع الانسان فى كثير من أركان الايمان، فلابدّ له من مدافعتها بالقوّة البرهانية، لتصير مسلمة بيده العاقلة بتأييد الرحمن.

فهذا النور هو الخير الحقيقى والسعادة الحقيقية، وبه يصير الانسان حيّاً بالفعل بحياة ذاتية غير محتاج فى قوامه الى المادة وذلک لصيرورته فى جملة الأشياء البريئة عن المواد والاستعدادات باقياً أبد الآبدين.

وهذا النور العقلى إنّما يحصل للنفس الانسانية بوسيلة أفعال وأعمال يقربها الى عالم القدس، بعضها من باب الحركات الفكريّة والأعمال الذهنية من الأنظار الدقيقية والنيات الخالصة تقرّباً الى الله، وبعضها من باب الطاعات و الأذكار مع هيئة خضوع و خشوع، و بعضها من باب التروک كالصيام والصمت وترک الدنيا والعزلة عن الناس، وجميع هذه الأمور يناسب الأمر القدسى المنبعث بسبب تكرر الادراكات العقليّة الموجب لحصول العقل بالفعل، الذى يقال له العقل البسيط و هو أمر جوهرى نسبته الى المعقولات المفصلة نسبة الكيمياء الى الدنانير.

وكذا الحال فى تحصيل مبدأ طباعى بالقياس الى الآثار الصادرة منه، أما ترى الحديد الحامية كيف تحصل له من تكرر التسخنات بالنفاخات صورة نارية وقوة مسخنة تفعل التسخين لذاتها وتشابه فعلها فعل الصورة النارية، فلا تتعجّب من نفس حصل فيها لكثرة التشبهات بالمبادى الالهيّة وتكرر صدور الأفاعيل الروحانية منها نور قدسى وصورة عقلية تعقل المعقولات، كمايحصل فى الحديد المذاب قوة نارية تفعل فعل النّار، لكثرة مجاورته وعكوفه على باب النار.

وهكذا حال النفوس التألّهة فى عكوفهم على باب اللّه ومواظبتهم على أفعال يشبه أفعال اللّه من الشفقة والعطوفة والرحمة على خلق الله، ودعاء الخير على كلّ ذى روح، والترفع عن الجسمانيّات، والطاعة لله ولرسوله ولأولى الأمر من الأئمّة المعصومين عليهم السلام، كلّ ذلک تشبّهاً به وتخلّقاً بأخلاقه، كما ورد فى الحديث عن النبى صلى الله عليه وآله: «تخلّقوا بأخلاق اللّه» حتى يحصل لهم بكثرة التعقلات وتكرر المشاهدات مبدأ صورى فى نفوسهم، وقوة عقلية مشرقة بنور اللّه هى مبدأ أنوار المعقولات، وفعال صور المعلومات.

وبالجملة كلّ جوهر له قوّة واستعداد لحصول مختلفه، فبحسب كثرة الانفعالات حصلت له من نوع صفة يحصل فيه صورة جوهرية هى مبدء تلک الصفة، أو لا ترى أنّ كثرة مجاورة النار وتكرّر التسخينات توجب للحطب وغيره صورة نارية تفعل فعلها، وكذا كثرة مجاورة الأرض يجعل الشىء تراباً صرفا يفعل فعل التراب، وهذا ممّا لا شبهة فيه وخصوصاً إذا كان الأمر المجاور«المشبه»ذا قوة استعدادية سهل القبول و الأمر المجاور له«المشبه به»ذاصورة قوية التأثير كالحطب اليابس فى مجاورة النار.

فاذا كان كذلک فلا شبهة فى أنّ النفس الانسانية فى أوّل الفطرة قوّة قابلة استعدادية بالقياس الى كلّ صورة وصفة ـ وهذا أمر بيّن ـ ولهذ يتصور كلّ شىء ـ ولوبوجه مّا ـ وينفعل عن كلّ شىء، وذلک للطافته وصفاء جوهره وصقالة ذاته ومن هاهنا يكتسب الانسان الصنايع ويتخذ الملكات الصناعية كالكتابة والفلاحة والتجر وغيرها.

فان كان مايزاوله ويباشره من باب الأمور العقليّة كالتعقلات والتصورات الروحانية والأفعال القدسية ويكون كثير المراجعة الى اللّه تعالى بالتسبيحات والتقديرات والأوراد والأذكار وسائر الأمور المقرّبة اليه، وكثير التفكر فى أمر آخرته وقيامه عند الحق ومثولة بين يدى الله، وكثير التذكّر للموت والساعة، وهكذا حاله مدة مديدة الى أن يشتد فيه هذه الصفة، فيحصل فى نفسه الجوهر الصورى والنور الالهى، الذى ذكرنا أنّه فعال للمعقولات النوريّة والصور الأخرويّة الأفلاطونيّة التى ذهب الى وجودها أفلاطن ومن تقدمه من أشياخه الكرام، وأنكرها من تأخّر من الحكماء الباحثين الى يومنا هذا ـ وقد منّ اللّه علينا بفضله واحسانه بمكاشفة هذه المثل النورية وأثبتناها فى أسفارنا الالهيّة.

وإن لم يكن كذلک ولم تبلغ نفسه الى هذه المرتبة فلا يخلو إمّا أن يكون كثيرة التأثير والانفعالات من اللذات الدنيويّة، شديدة الاشتغال بالأفعال الشهوية والغضبية من محبة

المال والجاه، ومحبة الترفع على الناس، والتكبر والاستطالة على الخلق، والشهرة عند الناس، والركون الى الدنيا والاخلاد الى الأرض وغير ذلک من الأفعال الحيوانيّة التى بعضها شهوية وبعضها غضبية.

فان كان الغالب عليه مباشرة الأفعال الشهوية توجب أن تحصل للقوة القابلة النفسانية صورة بهيميّة مشتاقة الى فعل الشهوات دائما، سواء كانت آلات الشهوات موجودة معها أو مفقودة بالموت.

وإن كان الغالب عليه مباشرة الأفعال الغضبية ـ من الانتقام والترفعات ـ تحصل للنفس صورة غضببية ظلامة نازعة الى فعل الجفاء والظلم والجور والعنف ـ سواء كانت قادرة على ذلک أم لا ـ وعلى كلا التقديرين لايخلو إمّا أن يكون فى نفسه شوق الى العقليّات واستعداد نحو الكمال والخير ـ مع جحوده للحق وانكاره للحكمة ـ أم لا.

فان كان الأوّل فهو أشدّ عذاباً و أعظم مصيبة وأدوم ايلاماً، لوجود الهيئات المضادة للحق فى نفسه، والفريقان جميعاً من أهل النار وأصحاب الجحيم ـ كما مرّ ذكره غير مرّة ـ وذلک لاحتجابهم عن العالم الأعلى بمباشرة أهل النار ومزاولة أفعال أصحاب الجحيم واكتساب هيئاتها السوأى آناً فآناً، فانقلبت نفوسهم وانتكست رؤوسهم الى أقفيتهم وصارت نفوسهم صوراً حيوانية بل أضل سبيلا من الأنعام باكتساب الصفات الشيطانيّة، فصارت شياطين مردودين عن أفق الملائكة المقدسين، فبقت فى غصة وعذاب مغلولة مقيدة بسلاسل التعلقات تلدغها عقارب الهيئات مادامت السموات.

وكانت قد ناداها الحق فتغافلت، وأسمعها الرسول فتصاممت، وناصحها الأئمة عليهم السلام فعاندت وعزت عن أمر ربّها فأطفئت نورها، فحلّ عليها غضب الحق، فهوت الى درك الشقاء مهوى الأشقياء، فصاروا فى ظلم الجحيم صم بكم عمى، وقيل فيها: ﴿ومن أعرض عن ذكرى فانّ له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى*قال ربّ لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً*قال كذلک أتتک آياتنا فنسيتها وكذلک اليوم تنسى﴾(طه(٢٠): ١٢٦ـ١٢٤) ومن أعظم الألم ﴿إنّهم عن ربّهم يومئذ لمحجوبون﴾(المطففين(٨٣): ١٥) وقد ﴿ان على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾(المطففين(٨٣): ١٤) وأحاطت بهم خطيئاتهم ﴿و إنّ جهنّم لمحيطة بالكافرين﴾ (العنكبوت(٢٩): ٥٤)فهم ﴿فى الدرک الأسفل من النار﴾(النساء(٤): ١٤٥) متقاعدون ﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون﴾(سبأ(٣٤): ٥٤).

وإن لم يكن شديد الانكباب على اللذات، كثير التعلّق الى الدنيا والتمنّى فى حياتها الفانية ـ إمّا لضعف القوى الأمّارة الحيوانية أولسلامة النفس وقبول النصيحة، واستماع الايات وفهم الأخبار والعمل بمقتضاها على حسب وسعه وحوصلة ذاته لادراک الأمثلة الايمانية والخيرات المظنونة، فهؤلاء هم أهل الرحمة الباقون على فطرتهم، المتبوّئون منازل الجنان، المستبشرون بالنعيم من الحور العين والكأس من ماء معين، والقصور المرتفعة والغرف المستعلية والفواكه والأطعمة اللذيذة، والأشربة الهنيئة المريئة، وسقاهم ربّهم شراباً طهوراً، يلبسون فيها من سندس و استبرق وحلّوا أساور من فضّة، متكئين فيها على الأرائک لايرون فيها شمساً ولا زمهريراً، على حسب ماتشتهيه أنفسهم وتلذّ أعينهم جزاء بما كانوا يعملون، ووفاء بما كانوا يسمعون، وقيل لهم فى الدنيا فينتظرون.

فهذا أنموذج فى بيان صيرورة الأرواح الانسيّة إمّا من الملائكة المقرّبين والعباد الصالحين، وإمّا من البهائم والسباع والشياطين ـ بمزاولة أعمال كلّ من هذه الموجودات ـ أو من أهل السلامة القابلة للمغفرة والرحمة لبقائهم على الفطرة.

وجملة القول أنّ مراتب الموجودات الجوهريّة بعد المبدأ الأوّل إمّا ملائكة مهيّمة، أو ملائكة عقلية فعّالة، أو جواهر روحانيّة، أو نفوس ناطقة مدبّرة، أو نفوس حيوانية بهيميّة أو غضبية، أو نفوس شيطانيّة وهمانيّة حصلت منها قبائل من الجنّة والغيلان وغيرها، أو طبيعية جسمانية فلكية أو عنصرية، أو مادة هيولانية، والقلب الانسانى المسمّى بـ«الناطقة» متوسطة بين الطرفين ـ الروح ومافوقها، والنفس الأمّارة وماتحتها.

فهو بين اصبعين من أصابع الرحمن، فينجذب الى أحد الطرفين بحسب شدة المناسبة اليه وغلبة المحبّة إيّاه، فان كان الغالب عليه محبّة اللّه وأنبيائه وأوليائه وملكوته والشوق الى دار الآخرة«من كان الله كان لله له»، فينجذب الى عالم الملكوت انجذاب أبرة ضعيفة الى مقناطيس غير متناه القوّة﴿اللّه ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور﴾.

وإن كان الغالب عليه محبّة الباطل فينجذب الى الأسفل ويصير من أصحاب النار ﴿والذين كفروا اوليائهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات أولئک أصحاب النار هم فيها خالدون﴾، ﴿ما كان اللّه ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾(العنكبوت(۲۹): ۴۰) ذلک بما كسبت قلوبهم.

فالقلب الانسانى بمنزلة صراط ممدود على متن جهنّم ﴿وإنّک لتهدى الى صراط

المستقيم *صراط اللّه الذی له ما فی السموات وما فی الأرض﴾(الشوری(۴۲): ۵۲ـ۵۳)وهو أدقّ من الشعر وأحدّ من السیف .

أمّاالدقّة ، فلأنّ الانحراف والتوجّه منه الی أحد الطرفین ـ أعنی فی العرض ـ یوجب الهلاک ، لأنّ أطرافه ـ غیر جهة العلوّ ـ اشخاص الجحیم ، من الأفاعی اللسّاعة ، والعقارب اللدّاغة ، والسباع الضواریء ، والکلاب العواقر ، کلّها تهیّأت لابتلاع الانسان ولدغه ولسعه ﴿ولا ترکنوا الی الذین ظلموا فتمسّکم النار﴾(هود(۱۱): ۱۱۳) .

وأمّا الحدّة ، فلأنّ الوقوف علیه أیضاً ممّا یقتضی الهلاک ، ومن وقف علیه شقّة ، فأهل الجحیم لأجل انحرافهم عن الصراط المستقیم وضلالهم عن الطریق القویم یقعون فی الحمیم ، وذلک لعدم التفاتهم الی علم النفس وما فوقها ، وترکهم تهذیب الباطن عن رذائل النفس وماتحبّها ، وباهمالهم وتقویتهم معرفة النفس فأتت عنهم معرفة الربّ ، لأنّ «من عرف نفسه فقد عرف ربّه» ﴿إنّ الذین لایؤمنون بالاخرة عن الصراط لناکبون﴾(المؤمنون(۲۳): ۷۴) .

توضیح و تأکید

[یحشر بعض الناس علی صورة تحسن عندها القردة والخنازیر]

قدظهر أنّ کلّ صفة وملکة یغلب علی باطن الانسان لأجل تکرار الأفاعیل الموجبة لحدوث الأخلاق والملکات یتصوّر فی الاخرة بصورة تناسبها ، ولاشکّ أنّ أفاعیل الأشقیاء المردودین إنّما هی بحسب هممهم القاصرة عن الارتقاء الی عالم الملکوت ، ومحبّتهم المتعلّقة بمراتب البرازخ الحیوانیة المقتضیة للأعمال الشهویّة والغضبیّة البهیمیّة والسبعیّة ، فلاجرم هممهم و تصوّراتهم أغراض حیوانیّة تغلب علی نفوسهم ، فیحشر علی صورة تلک الحیوانات ، کما یدلّ علیه قوله تعالی : ﴿وإذا الوحوش حشرت﴾(التکویر(۸۱): ۵) وربّما یحشر بعض النفوس علی صورة جامعة لفنون الرذائل الحیوانیّة ، کماورد أنّه : .

وممّا یؤکّد هذا الحکم أنّ أصحاب الکشف والشهود للطافة قلوبهم وذکاء باطنهم وصفاء ذهنهم یتصوّر عندهم الأشقیاء بصورهم الحقیقیة الأخرویّة ویعاینون لهم فی صقع باطنهم علی أشکال وهیئات تقتضیها صفات النفوس وهیئات الأرواح ، وذلک لغلبة سلطان الاخرة وظهورها علی قلوب أهل الحق ﴿إنّ فی ذلک لأیات لقوم یعقلون﴾(النحل(۱۶): ۱۲) .

حتی قال بعض المکاشفین : إنّی أری فلاناً إذا تکلّم مازالت تفور من فیه فوّارة من النار

الی أن یسکت، وذلک عند من کان مغتاظاً یکون أکثر و اوفر.

وقال بعضهم فی قوله تعالی: ﴿ولا طعام إلّا من غسلین﴾ (الحاقة(٦٩): ٣٦) إنّی أراهم یأکلونه عیاناً.

وقال العلامة الدوانی: سمعت من أستاذی العالم العامل، محی الملّة والدین، محمد الأنصاری ـ نقلا عن بعض من لاقاه من الثقات ـ: إنّه کان فی بعض نواحی فارس بعض من الأولیاء، فدخل علیه ذات یوم واحد من أهل الدنیا، وکان ذلک الولی مستغرقاً فی حالته، فلمّا نظر علیه قال لخادمه:

أخرج هذا الحمار. ولم یکن یری منه إلّا صورة الحمار التی هی صورته فی المواطن الأخروی، ثمّ بعد أن زال عن هذا الحال أخبره الخادم بما جری فقال: «ما قلت إلّا ما رأیت، ولم أکن واقفاً علی ما تقول». ومثل هذه الحکایة منقول عن کثیر من المکاشفین.

المقالة العشرون
فی قوله تعالی: ﴿هم فیها خالدون﴾

وفیه مناظر:

المنظر الأوّل
فی فائدة لفظ «الخلود» هاهنا

اعلم أنّ بعض الممکورین بالعقل ـ من ضلال الملاحدة وجهّال الفلاسفة والطباعیّة وغیرهم– لفرط غفلتهم وغلبة مغالیط ظنونهم قد ظنّوا أنّ قبائح أعمالهم وفضائح أفعالهم وأقوالهم لا یؤثر فی صفاء أرواحهم وتغیّر أحوالهم، فاذا فارقت الأرواح الأجساد یرجع کلّ شیء الی أصله، فالأجساد ترجع الی العناصر، والأرواح ترجع الی حظائر القدس، و لایزاحمها شیء من نتائج الأعمال إلّا أیّاماً معدودة، کما حکی اللّه عنهم فی قوله: ﴿وقالوا لن تمسّنا النار إلّا أیّاماً معدودة﴾ (البقرة(٢): ٨٠) وذلک بقدر فطام الأرواح عن لبان التمتّعات الحیوانیة.

وهذا ظنّ فاسد وکفر صریح من وساوس الشیطان وهواجس النفس ولیس بمعقول، لأنّ العاقل یشاهد حسّاً وعقلا أنّ تتبّع الشهوات الحیوانیة واستیفاء اللذات النفسانیة یورث الأخلاق الذمیمة من الحرص والحقد والحسد والبغض والغضب والبخل والکبر والکذب